« بر الوالدين »[1] وقال لآخر : « أنْ تلقَى أخاك بوجه طلْق »[2] .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعى حال سائله ، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هى مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) ﴾ [الإسراء]

نعرف أن (إلاَّ) أداة استثناء ، تُخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيدا ، والآية أسلوب عربى فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يَرْضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفى .

ثم يقول الحق سبحانه[3] :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً (٩٠) ﴾

(١) قال أبو عمرو الشيبانى : أخبرنا صاحب هذه الدار ـ وأومأ بيده إلى دار عبد الله ـ قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها . قال : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٧٣) .

(٣) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٨ ـ ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه تعنتهم حتى جلس إليهم ، ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدى بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْى الفعل فى المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه . أى : فى المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذى لا يتغيِّر ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أنْ يحكمَ على شىء حُكْماً قاطعاً فى مستقبل هو لا يملكه ، فالذى يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذى لا تتناوله الأغيار .

لذلك ؛ فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُهُ   تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّ

والعجيب أن الناس يتطلعون فى نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبَّذا ، لو حدث كذا لَتَمّت هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص فى النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كلُّ صاحب نعمة بما فيها من نقص ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْن حاسد ، أو حقد حاقد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .. وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة فى الآخرين ، وأنه التميمة التى تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبي[١] أن يمدح سيف الدولة[٢] قال له :

شَخِصَ الأنامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ   مِنْ شَرِّ أعْيُنِهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

أي : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعمل عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن)تفيد تأبيد النفي في المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أمّا صاحب الأغيار فليس له ذلك ، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتْكم (لن) في الكذب ؛ لأنكم أبَّدتُم نَفْي الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفجِّر لكم النبي ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبي جهل وقال في الخَنْدَمَة[٣]

---

(١) المتنبي : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندي ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة في محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ في بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفي ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلي ١/١١٥] .

(٢) هو : علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي ، أبو الحسن سيف الدولة ، ولد في ميافارقين بديار بكر عام ٣٠٣ هـ ، له أخبار ووقائع مع الروم كثيرة ، ملك واسط ودمشق وحلب وتوفي بها ودفن في ميافارقين عام ٣٥٦ هـ عن ٥٣ عاماً . [الأعلام للزركلي ٤/٣٠٣] .

(٣) الخندمة : جبل معروف عند مكة ، قال ابن بري : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

وكان عكرمة بن أبي جهل قد قال قبل هذا عن أذان بلال بن رباح للظُّهْر فوق ظَهْر الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبا الحكم (يقصد أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . [دلائل النبوة للبيهقي ٤/٣٢٨] .

ما قال ، ثم رجع إلى النبى ﷺ مؤمناً معتذراً[1] وخرج محارباً مع خالد بن الوليد فى اليرموك ، وحين طُعِن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبِّر لأسلوب القرآن فى سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝﴾ [الكافرون]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر فى الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝﴾ [الكافرون] لينفى أيضاً احتمال العبادة فى المستقبل ، إذن : فليس فى الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصَار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ : كيف نفى القرآن الحدث فى المستقبل ؟ نقول : لأن المتكلِّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذى يملك الأحداث ولا تُغيِّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبَّد النَّفى فيه .

---

(١) فرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئاً . فقال عكرمة : « والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره ، اللهم إن لك علىَّ عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » [الإصابة فى تمييز الصحابة [٢٥٨/٤ ، ترجمة ٥٦٣٢] .

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرىٰ قال : ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا .. ۝١٢﴾ [القمر]

فالتفجير : أن تعمل فى الأرض عملية تُخرج المستتر فى باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرج لك الماء من الارض ، وتأخذ منه حاجتك فلا ينقص ؛ لأنها تعوض ما أُخذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يغيض الماء فيها قليلاً .

أما الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما فى زمزم مثلاً ، ولا شكَّ أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول ﷺ ، فقالوا :

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول (جنة) أى : بستان أو حديقة من النخيل والعنب ؛ لأنهما الصِّنْفان المشهوران عند العرب ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۝٩١﴾ [الإسراء] أى : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويواصلون تحديهم لرسول الله ﷺ ، فيقولون :

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾

الزَّعْم : هو القول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطيّة

الكذب ، قال تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا .. ⑦﴾ [التغابن]

وإنْ كانوا اتهموا رسول الله بالزعم ، فما هو إلا مُبلِّغ عنْ الله ، وناقل إليهم منهج ربه ، فإنْ أرادوا أنْ يتَّهموا فليتهموا الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن رسوله لا ذنبَ له ، وقد جاءوا بمسألة إسقاط السماء عليهم ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال عنهم :

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ⑨﴾ [سبأ]

لذلك طلبوا من رسول الله أنْ يُوقِع بهم هذا التهديد .

و﴿كِسَفًا .. ⑨②﴾ [الإسراء] أي : قِطَعاً ، ومفردها كسفة كقطعة .

ويقول تعالى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ⑨②﴾ [الإسراء] أي : نراهم أمامنا هكذا مُقَابلة عياناً ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. ②①﴾ [الفرقان]

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد ؛ لذلك يقول الحق سبحانه ردّاً على لَجَج هؤلاء وتعنُّتهم : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .. ①①①﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ[1] فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

البيت : هو المكان المعدّ للبيتوتة ، والزخرف : أى المزيَّن ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة ؛ لأن كل زُخْرف من زخارف الزينة يطرأ عليه ما يُغيِّره فيبهت لونه ، وينطفىء بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذى لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورَوْنقه ، فإنْ كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

ونرى الذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاقَ الحضارات ، ويتبارَوْنَ فى زخرفة الصناعات يُلصقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب ؛ لتظلَّ محتفظة بجمالها ، كما فى الأطقم الفرنساوى أو الإنجليزى مثلاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : يكونْ لك سلَّم تصعد به فى السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

(١) رقى : علا وصعد . [القاموس القويم ١/ ٢٧٣] .

وكأنهم يُبيِّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون في الأولى ، وكاذبون في الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذي أرادوا ما آمنوا ، وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنعام]

وانظر إلى ردِّ القرآن على كل هذا التعنت السابق : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] وكلمة (سبحان) كلمة التنزيه العُلْيا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله ؛ لأنها كلمة لا تُقَال إلا لله تعالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أنْ قالها أحد لأحد ، مع ما في الكون من جبابرة وعُتَاة ، يحرص الناس على منافقتهم وتملُّقهم ، وهذه كلمة اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان ، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد .

والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرون عليها ، وتحدى المختار في المثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تستطيع أن تفعل ذلك ، ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد]

نزلت هذه الآيات في أبي لهب ، وهو كافر ، ويحتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدرِي رسول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرآناً يُتلَى

ويُحفظ ويُسجَّل ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ، وأن مصيره النار .

وهنا نقول : أمَا كان في إمكان أبى لهب أنْ يُكذِّب هذا القول ، فيقوم في قومه مُنادياً بلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ـ ولو نِفَاقاً ـ وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟

لكن هذا لم يحدث ؛ لأن المتكلم هو الله ربُّ العالمين .

ومن هذا التحدى أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء مأخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو علَم على الذات الإلهية لم يُؤخَذ من صفة من صفاته تعالى ، فالقادر والغفور والحىّ القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة من صفات ، إنما (الله) علَم على الذات الجامعة لكُلِّ هذه الصفات

لذلك تحدَّى الخالق سبحانه جميع الخَلْق ، وقد أعطاهم الحرية فى اختيار الأسماء أنْ يُسمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ، ويعلن هذا التحدى فى كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم] ؟

ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أنْ يُسمَّى هذا الاسم ليظلَّ هذا التحدى قائماً إلى قيام الساعة ؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمان به وبوجوده تعالى متغلغل حتى فى نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن هذه الكلمة كذب ، أو لا وجودَ لها لأقدموا على التسمية بها دون أن يُبالُوا شيئاً ، أمَا وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ، ويُجرِّب هذه التسمية فى نفسه ؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدرى ما هى .

لذلك رَدَّ الحق سبحانه على تعنُّت الكفار فيما طلبوه من رسوله ﷺ قائلاً : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] لأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَدّاً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلَق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهمْ :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾ [العنكبوت]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجُّب أيضاً : أيطلبون هذه الآيات ، ولم يكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناءٌ لهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء]

هل ادعيْتُ لكم أنِّى إله ؟! ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربى ، وأفعل ما يأمرني به ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾

أى : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً ، هذه هى القضية التى وقفت فى حلوقهم : ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أنْ تتم إلا ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقِّى عن الله من وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع أنْ يتلقَّى عن القُوة العليا مباشرة ، فإذنْ : هناك مراحل : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ [الشورى]

لكن الرسول البشرى كيف يُكلِّم الله ؟ لا بُدَّ أنْ نأتى برسول من الجنس الأعلى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً .. (٧٥)﴾ [الحج] وهذا مرحلة ، ثم يصطفى رسولاً من البشر يتلقَّى عن المَلك كى يستطيع أنْ يُبلِّغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى : أنت إذا أردتَ إضاءة لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائى عالٍ ، هل يمكن أنْ تُوصِّله بهذه اللمبة ؟ لا لأنها ستحترق فوراً ، إذن : ما الحل ؟ الحل أنْ تأتى بجهاز وسيط يُقلِّل لك هذا التيار القوى ، ويعطى اللمبة على قَدْر حاجتها فتضىء .

كذلك الحق سبحانه يصطفى من الملائكة رسلاً يمكنهم التلقِّى عن الله ويصطفى من البشر رسلاً يمكنهم التلقِّى عن الملائكة ، ثم يُبلِّغ الرسول المصطفى من البشر بنى جنسه . إذن : فماذا يُزعجكم فى أنْ يكون الرسول بشراً ؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهى أمر طبيعى ؟

يقول تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ .. (٢)﴾ [يونس]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[1] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا .. (١٥) ﴾[يس]

إذن : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح - عليه السلام - ألم يَقُلْ له قومه : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

وقالوا : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) ﴾ [المؤمنون]

وقالوا : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾[القمر]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر فى السُّنة المتبعة فى الرسل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالاً لِيتمَّ اللقاء بينكم ، وإلاَّ فلو جاء الرسول ملَكاً كما تقولون ، هل سترونْ هذا الملك ؟ قالوا : لا هو مُستتر عنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ، وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوَّر لكم الملك فى صورة رجل ليؤدى منهمة البلاغ

(١) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه أنها مدينة انطاكية ، وكان بها ملك يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ورجحوا أنها قرية أخرى أو تكون انطاكية مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انظر تفسير ابن كثير (٥٦٦/٣ ، ٥٧٠) .

عن الله ، وهكذا نعود من حيث بدأنا ؛ لأنها الطبيعة التى لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ ﴾ [الانعام] إذن : لا داعى للتمحك والعناد ، ومصادمة الفطرة التى خلقها الله ، والطبيعة التى ارتضاها لخَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ ﴾

(قُلْ) أى : ردّاً عليهم : لو أن الملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين لَنزَّلنا عليهم ملكاً رسولاً لكى يكون من طبيعتهم ، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ ، وهذا واضح فى حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين ليُعلِّم الصحابة : ما الإحسان ؟ ما الإيمان ؟ ما الإسلام . فيأتى جبريل مجلس رسول الله فى صورة رجل من أهل البادية ، وبعد أنْ أدّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم ليُعلِّمكم أمور دينكم »[1] .

شىء آخر يقتضى بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أُسْوة سلوك لقومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب .

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة ؟ وكيف يقتدى الناس بها إنْ كان الرسول ملَكاً ؟

فالرسول عندما يُبلِّغ منهج الله عليه أنْ يُطبِّق هذا المنهج فى نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بِنَجْوَة ، بل هو إمامهم فى القول والعمل .

لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبِّق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر - رضى الله عنه - إذا أراد أن يُقنِّن قانوناً ويرى أنه سيتعب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذِّرهم من المخالفة : « فو الذى نفسى بيده ، مَنْ خالفنى منكم إلى شىء لأجعلنّه نكالاً للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أُطبِّقه على نفسى » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها فى عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة : « حكمتَ ، فعدلْتَ ، فأمنت ، فنمْتَ يا عمر » وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحَواليْه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدى به ، فإنْ رأوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجرؤ أحد منهم على المخالفة ، وإنْ رأوْه منحرفاً فاقوه فى المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدها تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب[1] .

ولقد رأينا فى واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأُسْوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن

(١) وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنهما : أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته ، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك [حلية الأولياء ١/ ٥٠] .

أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، فى حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش فى قصر ورثه عن أبيه أو جَدِّه ، وكأنه يُغلظ على نفسه ويبغى الرفاهية لرعيته .

وكذلك رسول الله ﷺ وقد أتى بمنهج ، وهو فى الوقت نفسه أسْوة سلوك وقُدْوة ، فنراه ﷺ يحثّ الغنىّ على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإنْ توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُوَرَّثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين[1] ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه ﷺ .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا ما أحسَّ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم فى كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إنْ جاء ملَكاً فإن الأُسْوة لا تتمّ به ، فإنْ أمرنا بشىء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتجّ عليه : كيف وأنت ملَكٌ لا شهوةَ لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧٥٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن أزواج النبى ﷺ حين توفى رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبى ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث، ما تركنا فهو صدقة » وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧١١ ، ٣٧١٢) .

ومن هنا لا بُدّ أن يكون الرسول بشراً فإنْ حمل نفسه على منهج فلا عُذْر لأحد فى التخلُّف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى الاقتداء بسلوكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً وقُلْنا : هَبْ أنك رأيتَ فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً ؟ إنما لو رأيتَ فارساً على صَهْوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب الأعداء ، ألاَّ تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن : لا تتمّ القُدْوة ولا تصح إلا إنْ كان الرسول بشراً ، ولا داعى للتمرُّد على الطبيعة التى خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(قُلْ) أى : رَدّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم على بشرية الرسول : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾[الإسراء]

والشهيد إنما يُطلَب للشهادة فى قضية ما ، فما القضية هنا ؟ القضية هى قضية تعنُّت الكفار مع رسول الله ﷺ ؛ لأنهم طلبوا منه مَا ليس فى وُسْعه . والرسول لا يعنيه المتعنتون فى شىء ؛ لأن أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فإنْ كانت شهادة الشاهد فى حـوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشـهيـد الذى رأى ، والحـاكم الذى يحكم ، والسلطة التنـفيـذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .. (٩٦) ﴾ [الإسراء]

فهو كافـيك هذا الأمر ؛ لأنه كان بعباده (خَبِيـراً) يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم مـن وراء هذا التعنُّت (بَصِـيـراً) لا يخفى عليـه شىء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾

سـبق أنْ قُلْنا : إن الهـداية نوعـان : هداية الدلالة المطلقـة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافـر ، فقد دَلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التـوفيق والمعونة للقـيام بمطلوبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خـاصّـة بالمـؤمن ، فـبـعـد أنْ دَلَّه الله آمن وصـدَّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ⟨١٧⟩﴾ [فصلت]

أى : دَلَلْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بأسلوبين قرآنيين يوضِّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ⟨٥٦⟩﴾ [القصص]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة ؛ لأنه ﷺ لا يملكها ، وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ⟨٥٢⟩﴾ [الشورى]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة ؛ لأن هذه هى مهمته كمبلِّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه ؛ لأن الجهة مُنفكَّة أى : أن جهة الإثبات غير جهة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⟨٦⟩ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ⟨٧⟩﴾ [الروم]

فمرة : نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرِّر مثل هذه القضايا لكى تستقرّ فى النفس الإنسانية ، وفى مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ⟨١٧⟩﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة ؛ لأن النبى ﷺ فى غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرّمْى الذى أثبتته الآية ، وقد تولّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلتْهم عن القتال ، وهذا هو الرّمْى الذى نفاه الحق عن رسوله ﷺ[1] .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذى تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتى بالكتب ويضعها أمامه ويُقلّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعتَ معه ما ذاكر لا تجدْه حصّل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثْبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الصف] لكن يهدى العادلين .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف] .. لكن يهدى الطائعين .

---

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١٣٣) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت فى رمى النبى عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادى يوم بدر حين قال للمشركين : شاهت الوجوه . ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شىء » ، وانظر الآثار المروية فى هذا فى الدر المنثور للسيوطى (٤/ ٤٠ ، ٤١) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] .. لكن يهدى المؤمنين .

إذن : بيَّن الحق سبحانه فى أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام]

نعود إلى (مَن) فى قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] قلنا : إن (من) اسم موصول بمعنى الذى ، واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذى) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذى ، التى ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتى . فتقول : مَنْ جاءك فأكرمْه ، ومَنْ جاءتك فأكرمْها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم ، ومَنْ جئْنَكَ فأكرمْهُن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهى - إذن - صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) فى الآية : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] جاءت (مَنْ) دالّة على المفرد المذكر ، وهى فى نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث ، فنقول : مَنْ يهدِهَا الله فهى المهتدية ، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غيره فى مجال الهدى ، أما فى الضلال فجاءتْ (مَنْ) دالَّة على الجمع المذكّر ؟

نقول : لأنه لاحظ لفظ (مَنْ) فأفرد الأولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]

وهنا ملْحظ دقيق يجب تدبُّره : فى الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

أما فى الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابة خطّاً مُسْتقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً مُتعرّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابى »[2] .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » ص (٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد فى مسنده (٤٦٥/١) والحاكم فى مستدركه (٣١٨/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ ـ موارد الظمآن) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألْف مذهب ، وألف منهج ؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص فى الضلال . فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعى وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولاتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهى التى وضعتْ كُلَّ حَرْف فى موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَرَاء ومعاونين ومُعينين (مِنْ دُونِه) أى : من بعده ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]

الحشْر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَى وُجوهِهم) هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على وجهه ؟ فقال ﷺ : « إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم »[1] .

وما العجب فى ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور]

ألم تَرَ الثعبان ، كيف هو سريع فى مِشْيته ، خفيف فى حركته ، فالذى خلق قادر أن يُمشىَ من ضَلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحشر الناس ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم . قالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم . قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) ، والترمذى فى سننه (٣١٤٢) وحسَّنه .

المســألة إرادة مريد ليُوقع بهم غـاية الذِّلَّة والهوان ، وياليتــهم تنتهى بهم المهانة والمـذلّة عند هذا الحدِّ ، بل ﴿ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]

هذا استطراق لوسـائل الإهانة ، ففضـلاً عن مَشْيـهم على الوجوه فهم عُمْى لا يرونَ شيئاً ، ولا يهـتدون ، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام ، ولك أنْ تتصوَّر إنســاناً جمعت عليه كل هذه الوسائـل ليس فى يوم عادى ، بل فى يوم البـعث والنشور ، فإذا به يُفَـاجأ بهوْل البـعث ، وقد سُدَّتْ عـليه جمـيع منافذ الإدراك ، فهـو فى قلب هذا الهَـوْل والضجـيج ، ولكنه حائر لا يـدرى شيـئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفتـة على هذه الآية ، فقـد ورد فى القرآن كثـيراً : صُمٌّ بُـكْم بهـذا الترتيب إلا فى هذه الآية جـاءت هكذا : (بُـكْمًا وَصُـمًّا) ومعلوم أن الصَّمَم يسـبق البكَم ؛ لأن الإنسان يحكى ما سمـعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يسـتطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهى ظاهرة اجتماعية ليستْ جنساً وليست دَماً .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الولد الإنجليزى إذا تربَّى فى بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس ؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فـما تسمعـه الأذن يحكيه اللسان . حتى العـربى نفسه الذى يعيش فـى بيئة عـربية ، إلا أنه لم يسـمع هذه الألفاظ الغـريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن فى هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحـشر كان المفـروض أن يسأل أولاً عمَّا يحـدث ، ثم يسمع

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجئ بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم فى هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجاورونهم ممَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولمْ تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] فينفي عنهم الرؤية ، وفى آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. (٧٥) ﴾ [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣) ﴾ [الكهف]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل فى حال هؤلاء المعذَّبين فى موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْيًا ليتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالَيْن : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء] مأواهم : أى : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أى : ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفىء ؟ أليس فى ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل فى الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو فى حدِّ ذاته

لَوْنٌ من العذاب ؛ لأن استدامة الشيء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إِلْف له ، فإنْ خَبَت النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكَى لهم وآلم في تعذيبهم .

وهذا يُسمُّونه في البلاغة « اليأس بعد الإطماع » ، كما جاء في قول الشاعر :

فَأصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَدَاةَ كَقَابِضٍ عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأصَابِعِ

وفي السجون والمعتقلات يحدث مثل هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حَدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتي له بكوب الماء حتى يكون على شَفَتَيْه ، ويطمع في أنْ يبلّ ريقه ويطفيء غُلَّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ في التعذيب .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

كَمَا ابرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

أي : ساعة أنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

---

(١) هو : كثير بن عبدالرحمن الخزاعي أبو صخر ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة ، أكثر إقامته بمصر ، أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة ، وكان عفيفاً في حبه . توفي ١٠٥ هـ (الأعلام للزركلي ٥/٢١٩) .

(٢) البيت لكُثيِّر عزة . انظر ديوانه (ص١٠٧) ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، تحقيق إحسان عباس . وقال شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) في كتابه : « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » تحقيق أكرم عثمان يوسف (ص ١٢١) « فإن مجرد قوله « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه ؛ لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعاً أدى إلى انتهاء مؤيس » .